الانسجام في الخطاب الرحلي تعددية النمط والتيمة

د/ إبراهيم بشار
جامعة بسكرة

الملخص :

ندرس في هذه المقالة الخطاب الرحلي، الذي يتفرّد بتشعب الموضوعات وتنوع الأساليب، وتباين المداخل؛ فأدب الرحلة رحلة حقيقية للأدب؛ ترى فيه مزيجا متجانسا وغير متجانس من تأريخٍ وجغرافيا، وأدبٍ وإثنوغرافيا وأشياءَ أخرى لما تضبط بعد.

لقد نضج هذا الفن في أحضان التراث المغاربي وتميز بشمولية موضوعه، وتشويق مباحثه، وطرافة أحداثه، وبديع أسلوبه. لكن على الرغم من هذه الخصوصيات فقد شحّت فيه أقلام النقاد، وانزاحت عن جماليته جلّ الدراسات.

Résumé :

Dans le présent article, on vise à aborder le discours dans le récit de voyage comme étant distinct de sa diversité des sujets et de sa variété des styles. Le récit de voyage consiste en un voyage réel de la littérature là où on y voit un métissage homogène et hétérogène de l'Histoire, la géographie, la littérature, l'ethnographie et autres choses qui ne sont pas encore déterminées. Cet art a progressé au sein du patrimoine magrébin, et s'est caractérisé par ses sujets exhaustifs, ses recherches intéressantes et ses événements pittoresques. Mais en dépit de ces spécificités, les critiques ne l'ont pas pris en compte et les études ont écarté ses aspects esthétiques

تمهيد

تمثل الرحلة مسلكا ينزع إليه الإنسان تحقيقا لدوافع دينية وسياسية وثقافية واقتصادية، بل إن الفطرة الإنسانية تأبى مكوثَ الإنسان في وطنه الضيق قابعا بين أهله وأقرانه، منطويا على محيطه، مما يحدّ من معرفته ويكبّل خيالاته، فشتان بين من "لزم جهةَ وطنه، وقنع بما نُمى إليه من الأخبار عن إقليمه ومن قسّم عُمُرَه على قطع الأقطار، ووزّع أيّامه بين تقاذفِ الأسفار واستخراجِ كلِ دقيق من معدنه وإثارةِ كل نفيس من مكمنه"[1]. إن الرحلة قد رسّخت كل العوامل والمفاهيم التي بُنيت عليها مسألة وحْدة البشر على الأرض، وفجّرت في الإنسان استشعار المصالح المشتركة التي وثّقت عرى هذه الوحدة على الأرض.[2].

ولعل أبرز دور قامت به الرحلة في العالم العربي هو الخدمة الكبرى التي قدمتها لعلم الجغرافيا، أما القيمة الأدبية للرحلات فتجلت فيما تعْرض في موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني.

1-ضبط مصطلحات العنوان:

1-1-الانسجام: يتوارد هذا المصطلح مع مصطلح الاتساق كونهما قد صاحبا تلك النقلة النوعية التي حدثت في الساحة اللغوية بالانتقال من النموذج البنوي الجملي إلى النموذج التداولي النصي، حيث يشتغل الاتساق على ظاهر النص ويبدو مشدودا إلى الثبات والنظام أكثر على حين يتسم الانسجام بالمرونة والحرية التي تجعله يسافر مع النص من حيث طبيعته وموضوعه ونمطه وسياقه. إذ إن النص يمثل تشكيلا دلاليا، تشترك معطيات لسانية وعبر لسانية في إنتاجه وتلقيه. إنّ هذا البناء الخفيّ والفضاء الباطنيّ للأحداث والوقائع لا تكشفه في كثير من الأحوال سطحية الخطاب مما يفضي إلى استكناه عالم الخطاب المليء بالإيحاءات واستنطاق رؤاه المعتمة، وبخاصة إذا تعلّق الأمر بخطابات يشغل فيها تشفير الرّسالة، وتبعيد المعنى، حيّزا لا بأس به. من هنا أسّس النّصّانيّون معيار الانسجام في محاولة لاستبطان الخطاب، وإكمال ما توقّف عنده الاتّساق.

ففي معجم لسان العرب: «سَجَمَتِ العينُ الدّمع، والسَّحَابَةُ الماء(...)، السَّاجِمُ من المطر، والعرب تقول دمع سَاجِمٌ ودمع مَسْجُومٌ(...) وانْسَجَمَ الماء والدّمع فهو مُنْسَجِمٌ إذا انْسَجَمَ أي انصبّ، وسَجَّمَتِ السّحابة مطرَها تسْجيمًا وتَسْجامًا إذا صبّته»[3]. وعليه تدلّ مادّة (س ج م) على الانصباب والجريان والسّيلان.

فالانسجام يتصل بعالم الخطاب، ويعمل على استظهاره بوساطة عدّة عمليات تتطلب من الإجراءات ما تتنشّط به عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهوميّ واسترجاعه، ويتدعّم الانسجام بتفاعل المعلومات التي يعرضها النصّ مع المعرفة السابقة بالعالم[4]؛ أي يتناول الانسجام المستوى الدّلاليّ بالدرس، ثم يستثمر ما يمكن أن تقدمه تصوّراتنا عن العالم، وسيرورة الأشياء فيه من علاقات تلازمية بين الأحداث والوقائع تيّسر إدراك انسجام المعطى اللّغوي. ولمّا كانت الوظيفة المنوطة بالانسجام صعبة إلى حدّ بعيد؛ كونها مرتبطة أساسا بالبحث عن الدّلالة والمعنى، بدءا بالدّلالة المعجمية، ثمّ الدّلالة السّياقية بشقّيها التركيبي والمقامي إلى حيث يمضي بنا وصف عالم الخطاب.

ذهب فريق من الباحثين أمثال كرايمز (Crymes) إلى عدّ النّصّ/الخطاب نسقا من التّوافقيّة لسمات مختلفة من الوحدات المعجمية، التّي تتعالق ببعض العلاقات مثل الترادف والتّضاد والعموم والخصوص[5]، وغيرها ممّا يفرزه البناء المعجمي للنّصّ.

ثمّ أخذت الدّراسات الدّلالية للنّصّ تتّجه نحو كيفيّة إنتاجه، في محاولة لاستثمار قواعد الدّلالة التّوليديّة وتطبيقها على نصوص بكاملها، لكنّ طبيعة النصّ من حيث كونه نظاما واقعيا ذا طبيعة اتّصالية، جعلت هذه المحاولات الإسقاطية تفشل في صياغة قواعد مثالية مجرّدة، تمكّننا من التّمييز بين ما يعد نصّا وما لا يعد. كذلك أدّى هاجس القواعد العالمية للنّصوص، وإبعاد طرفي التواصل في التّحليل إلى عجز في شرح المستوى التّداولي في النّصّ. [6] وقد دفعت وحدة الخطاب الدّلالية وبؤرته الرّئيسة بعض اللّسانيين إلى التركيز على موضوع النص أو الخطاب؛ ذلك أنّ الموضوع-كما تذهب أكريكولا(Agricola)- هو « الفكرة الأساسية أو الرّئيسية في النّصّ التي تتضمّن معلومة المحتوى الهامة المُحَدِدَة للبناء في كامل النص بشكل مركّز ومجرّد».[7] ممّا يجعل البحث في موضوع النص/الخطاب آلية عملية لمعرفة كيفية إنتاج الخطاب وتلقيه ثم فهمه من لدن المتلقي.

وفَهم الخطاب عموما ليس بالأمر اليسير، بل هو عمليّة معقّدة تستوجب على المحلّل الاستعانة بمبادئ تتّصل بالمعرفة الخلفية، حتّى يتمكّن من «وصف كيفية تنظيم المعلومات عن العالم في ذّاكرة الإنسان، وكذلك كيفية تنشيطها في عمليّة فهم الخطاب»[8] ، وهذا يستوجب وضع النصّ في مقامه بغية الإحاطة بملابسات التواصل، التي تتدخّل بجانب كبير في صياغة النصّ. والمقام ليس بالضرورة أن يكون وليد اللّحظة المتزامنة مع إنتاج النصّ، بل هو حصيلة تفاعل خلفيات وخبرات تنعكس على سطح الخطاب[9]. ولعل التعامل مع

الخطاب الرحلي يفترض آليات مستنبطة أساسا من خصوصيات هذا النوع الأدبي، وذلك ما يشي به تنوعُ أسلوب أدب الرحلات من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف.

1-2- الخـطاب:

تنوَّعت المعاني المعجمية لمادة (خ ط ب) بين الحقيقة والمجاز، وبين الدلالة على قضايا اجتماعية والدلالة على أشكال كلامية. ويمكن إجمال أهم هذه المعاني في:

الأمر والشأن: يقال «ما خَطبُك؟ أَي ما أَمرُك؟ وتقول هذا خَطْبٌ جَليل، وَخَطْبٌ يَسير (...) وفي التنزيل العزيز قال: (فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا اَلمُرْسَلُونَ)[الحجر: 57]، وجمعه خُطُوب» [10].

التماس النكاح: لهذا نجدهم يقولون«خَطَبَ الخَطِيبُ خِطْبَة جميلة، وكَثُرَ خُطَّابُهَا، وهذا خِطْبُهَا وهذه خِطْبُه وخِطْبَتُه»[11].

فن من النثر: عرفه العرب منذ القديم؛ فالخُطْبَة هي:«الكلام المنثور المُسَجَّع ونحوه (...) مثل الرسالة التي لها أول وآخر (...) ورجل خَطيب حسن الخُطبة، وجمع الخطيب خطباء»[12].

الطلب والتمكّن من الشيء: يَعُدُّه الزمخشري معنًى مجازيا؛ من ذلك قولهم «فلان يَخْطُبُ عمل كذا: يَطْلُبُه. وقد أَخْطَبَك الصَّيد فارْمِه، أي أكثبك وأمكنك. وأَخطبك الأمر (...) ومعناه أطلبك من طلبت إليه حاجة فاطلبني».

الكلام مباشرةً مع الشخص وله صلة بالمراجعة: ومنه« الخِطاب والمُخَاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، وهما يتخاطبان»[13].

لم يكن لفظ الخطاب –إذاً– مستحدثا في العربية أو وافدا جديدا إليها؛ بل هو ضارب مع جذورها منقوش على معاجمها؛ وهذا ما صيّر معناه المعجمي ينأى بجانبه عن المعنى المتداول لدى المتخصصين. وهي من الهنات التي طبعت المعاجم العربية قديما وحديثا، فكثير من الألفاظ تخضع لنواميس التطور الدلالي دون أن ترصد معاجم العربية هذه التغيرات بحسب التداول والعصرنة، وبخاصة إذا تعلق الأمر بكلمة (خطاب)؛ فهي موجودة بقوة في كتب علماء العربية مستعملة بمعان اصطلاحية وبخاصة عند الأصوليين. بل إنها وردت بصيغ مختلفة في القرآن الكريم، ودلت على معان أقرب إلى المعنى الاصطلاحي منها إلى الدلالة المعجمية:

قال الله تعالى:(وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وءاتَيْنَاهُ الِحكْمَةَ وفَصْلَ الِخطَابِ). [ص:20]

يبدو من خلال الآية آنفة الذكر أن الخطاب يراد به الكلام، الذي يستحضر متكلما ومستمعا. ولما اقترن اللفظ بصفة الفصل دلّ على «البيّن من الكلام الملخَّص الذي يُبيّنه من يُخَاطَب به لا يلتبس عليه»[14]. فلا غموض ولا اضطراب في توصيل الرسالة إلى المخاطَب، وهذا مما لا يتأتى لكل الناس؛ فقد خصّ اللهُ النبيّ داود عليه السلام بهذه الموهبة، التي تجعله قادرا على التعبير عن مكامنه وإيصال مقاصده بتبيان وانتظام ووضوح وإفهام؛ «لأن فصل الخطاب عبارة عن كونه قادرا على التعبير عن كل ما يخطر في البال، ويحضر في الخيال بحيث لا يختلط شيء بشيء، وبحيث ينفصل كل مقام عن مقام».[15] إذ يُفترَض في الخطاب الإبانة، ومناسبة الكلام للمقام الذي أُستعمل فيه، وهو موجَّه –عادة– إلى شخص معيّن يكون حاضر الذهن والبدن، فالتواصل بين المخاطِب والمخاطَب آنيٌّ ومباشر.

وعلى ذكر طرفي الخطاب، فقد تحدث النحاة عن المخاطَب للدلالة على طرف الخطاب الآخر. وفي هذا الصدد يقول ابن يعيش: «والمضمرات لا لبس فيها فاستغنت عن الصفات، والأحوال المقترنة بها حضور المتكلم والمخاطَب والمشاهدة لهما، وتَقَدُّمُ ذكر الغائب الذي يصير به بمنزلة الحاضر المشاهد في الحكم، فأَعْرَفُ المضمرات المتكلم لأنه لا يوهمك غيره ثم المخاطَب والمخاطَب تلو المتكلم في الحضور والمشاهدة»[16] . وهكذا تحدث ابن يعيش عن السياق وعناصره المتمثلة في المتكلم أو المُرسِل للفعل اللغوي والمستمع أو المستقبل للرسالة، وأشار إلى أهمية الحضور والمشاهدة بصفتهما شرطين لتفسير عناصر الخطاب المضمرة. وقد يدل الضمير على حال المخاطَب مثلما هو الأمر في كاف الخطاب، و«تختلف حركات هذه الكاف ليكون ذلك أمارة على اختلاف أحوال المخاطَب من التذكير والتأنيث، وتلحقه علامات تدل على عدد من المخاطبين، ويوضح لك ذلك نعت اسم الإشارة ونداء المخاطب».[17] بيد أن مصطلح الخطاب ورد بإطّراد عند الأصوليين؛ إذ عليه دارت أبحاثهم في تفسير الخطاب الإلهي وتمحورت دراساتهم في خطاب القرآن ودرجاته وصار يدل عندهم على توجيه الكلام لمن يفهم، فانتقل من الدلالة على الحدث المجرد من الزمن إلى الدلالة على الاسمية، وصار مرادفا للكلام.[18] ولعل أقرب تعريفات الأصوليين ملامسة للخطاب بمفهومه الحديث هو ما ذهب إليه الآمدي، إذ عدّه «اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه».[19] فهذا التعريف يُوضِّح حقيقة الخطاب من حيث كونه لغة متواضعا عليها من لدن الجماعة اللغوية، وتستعمل هذه اللغة لأغراض تواصلية. وعليه يفترض الخطاب عناصر أهمها:

– اللغة: وهي مجموع القواعد والمفاهيم المركوزة في الذهن الجمعي، وتكون مشتركة بين طرفي الخطاب.

– القصدية: تتعلق بالمخاطِب الذي يقصد من كلامه أمورا لإيصال رسالته.

– الأثر: يتوقف على المخاطَب من خلال تفاعله أو رد فعله تجاه ما يُلقى إليه.

– الاتصال: فعادة ما يتطلب الخطابُ الحضورَ والمشاهدة والاستعداد للمُخَاطَب.

– المخاطَب: فهو المقصود بالخطاب، والمعني بالعملية التواصلية.

يظهر من خلال ما سبق أن الأصوليين قد استطاعوا مقاربة مفهوم الخطاب إلى حد بعيد. وإن كان جل اهتمامهم منصبا على الخطاب الديني، وظل الحديث عن الخطاب التداولي العادي مشروعا مؤجلا، استغنى عنه التبحر في علوم القرآن والحديث، أما الخطاب الأدبي فقد دلت عليه أمور جانبية؛ مثل تقديم القصيدة بمناسبتها، أو استئناف الرسالة بالمرسل والمرسل إليه، أو الحديث عن السياق المادي للنص الأدبي.

وإذا كان مفهوم الخطاب يدل على الكلام الذي يفترض متكلما ومستمعا حسب تصور الأصوليين، فإن النقاد واللغويين العرب المحدثين قد أعادوا النظر فيه متأثرين بالمدارس اللسانية الغربية؛ فربطوه بالنص حينا وبالكلام حينا آخر وبمستعمله (المتكلم والمتلقي) حينا ثالثا.

فقد أقام سعيد يقطين تعريفه للخطاب على أساس تمييزه عن النص؛ فالنص أشمل من الخطاب باعتباره مرسلة نحوية، بينما النص مظهر دلالي يصنعه المتلقي[20]، في عملية مشتركة مع صاحب النص. وهذا ما يجعل النص منفتحا على عوالم أخرى عن طريق السياق والتناص.

وفي مقابل هذا التصور يُعِدُّ محمد مفتاح الخطاب أعمّ من النص؛ لأن الأول يختص–حسب رأيه– باتصاله بالواقع الخارجي من خلال علاقة الانسجام، وفي هذا الصدد يقول: «إن النص عبارة عن وحدات لغوية طبيعية منضدة متسقة، وإن الخطاب عبارة عن وحدات لغوية منضدة متسقة منسجمة».[21]

وهناك من الدارسين العرب من رأى أن الخطاب تمظهر في مصطلحات عديدة بحسب اتجاهات الدرس اللساني؛ فهو الكلام عند دوسوسير(De.Saussure) ، والنص عند هيلمسليف(Hjemslev) ، والإنجاز عند شومسكي(Chomsky)، والرسالة عند جاكبسون (Jakobson)، والخطاب عند ڤيوم (Gaillaume)، والأسلوب عند رولان

بارت(Barthes).[22] ويجمع بين المفاهيم السابقة عنصرا التمرد على النظام اللغوي والاستعمال الفردي للغة أو الجهاز أو الملكة أو السنن أو القواعد.

فبين الدلالة العامة للمصطلح باعتباره توجُّها فكريا يتعامل باللغة وينفتح عن الفكر والثقافة؛ على نحو ما نسمع عن خطاب ديني وخطاب علماني وخطاب سريالي، وبين الدلالة الخاصة على وحدة لسانية أو عبر لسانية تقع في خضم مصطلحات أخرى مثل النص والملفوظ والتلفظ، تتصادم معها مفهوما وإجراء بين هذا وذاك وُجِدَ مفهوم الخطاب وتبلور.

وقد ساد تصور نادى به إميل بنفنيست(*)(Benveniste)؛ حين عدّ الخطاب ملفوظا منظورا إليه من وجهة آليات وعمليات اشتغاله بالتواصل، أو هو كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا تكون عند الأول نية التأثير على الثاني بطريقة ما.[23] فالملفوظ وحدة نسقية متسقة ومنسجمة داخليا، تنتمي إلى مجال الكلام باعتبارها كانت تلفظا قبل أن تستقر وتنغلق عن نفسها. أما الخطاب فهو ملفوظ مشتمل على ميكانيزمات التواصل؛ من قصدية وسياق وتأثير ووظيفة، وغير ذلك مما يتصل باللغة الطبيعية كما يستعملها الناس إنتاجا وتلقيا.

1-3-الأدب الرحلي:

أدب الرحلة من المصطلحات الفضفاضة إلى حد كبير؛ إذ يحوي موضوعين كبيرين هما: موضوع الأدب (الأدبية) بما هي مفهوم فني جمالي، وموضوع الرحلة بما هي تجربة "تعلن عن سرد الأسفار، وتتضمن معنى الذهاب بعيدا عن الموطن الأصل كما تفتح أفق انتظار يرتبط بالنوع نفسه، أي أنّ القارئ ينتظر وصفا للبلدان التي زارها صاحب ا وينتظر القارئ كذلك ذكرا لخصائص البلدان وعادا . الرحلة كوصف القاهرة في التعريف وطقوسها (...) الرحلة جولة في الفضاء (...) الرحلة وصف"[24]

يكتسي الكلام عن الأدب الرحلي وفق رؤية معاصرة أهمية خاصة، كون أغلب الدراسات التي تناولته وقفت عن الدراسة التاريخية الموضوعاتية على حين شحّت فيه أقلام النقاد، وانزاحت عن جماليته الدراسات على الرغم من شمولية موضوعه، وتشويق مباحثه، وطرافة أحداثه، وبديع أسلوبه.

إن أدب الرحلة بابٌ من الفن نضج في أحضان التراث المغاربي، حيث تجد كلَّ ما ما يصفو له الفكر وتطرب له الأذن ويشتاق له البصر من روائع الافتتان وبدائع الألوان، فالرحالة يصوّر كل ما يجول في ذهن الإنسان من أفراح وأحزان وحقائقَ وأوهام، وما

يعترضه في مسيره بالليل والنهار من أكام وجبال ووديان وأدغال، ليتجلى له كنه الوقائع وتتبارى الصور، وتتكاثف المشاهد وتتمايز العبر.

وليس بعزيز عن الرّحالة وقد جاب مسافات واكتسب ثقافات، ومكث بين الجمادات وحاور الحيوانات، وخالط أصنافا من الناس وصنوفا من المجتمعات أن يُفرغ لنا أدبا فريدا، يستحق مقارباتٍ أكثرَ عمقا وأعمق أثرا.

وها نحن في هذه المقال نتدارس ذلك الفن، من منظور نصي لنتحسس الانسجام في هذا الجنس الأدبي المتشعبةَ أطرافُه، والمستعصية مداخله. إذ إن أدب الرحلة رحلة حقيقية للأدب؛ فترى فيه مزيجا متجانسا وغير متجانس من تأريخٍ وجغرافيا، وأدبٍ وإثنوغرافيا وأشياءَ أخرى لما تضبط بعد. وقد قيل قديما "ولد الإنسان راحلا"؛ فإذا لم يكن للميت بدٌّ من الركون في مكان واحد فليس للحيّ كي لا يموت من أن يصول بين البلدان ويجول، "ولكم في الرحلة حياة يا أهالي الأدب". إن الرحّالة يستلهم من عثرةٍ عبرة ومن شرود ذهن فكرة ، ويستقي من نومةٍ في زاوية أو عطشةٍ في هاجرة فرائدَ وفوائد، قادرةً على تقديم وصفة أنثروبولوجية، قوامُها التجربة وذروة سنامها شمولية الإبداع.

تعدد الموضوع:

لا جرم أن يكون الأنا في هذا النوع من النصوص ذا تشكل متنوع في هويته الثقافية والاجتماعية؛ فهو أديب ومؤرخ، وجغرافي ومصنّف، وناقل أمين و"مزيّف"...ومن شأن هذا التشظي في الذات أن يفسح للنص الرحلي مقاربات شتى في مستويات الدلالة، وجماليات الشكل؛ لأنه يأوي خطابات وطبقات قوليةً تتجه لأكثر من متلق، وهذا ما يثري التأويل ويجعل من خصوصية الرحلة مشهدا ينتمي إلى النسق الثقافي العام[25].

وإيضاحا لهذه الخصوصية ودرءا للَبس المحتمل من تعارض الدراسة النقدية مع نص اختلف في أدبيته، وتأكيدا على استمرارية الجمالية الفنية في أدب الرحلة سنحاول مقاربة نماذجَ من النصوص الرحلية على ضوء بعض الآليات النقدية الحديثة.

أولا/تعدد التيمات في رحلة المسعودي "مروج الذهب ومعادن الجوهر".

يرى فان دايك أن انسجام النص لا يكون إلا عبر تحديد موضوعه فـ«موضوع أو تيمة نص ما هو إلا مفهوم البنية الدلالية الكبرى، وكما هو الشأن بالنسبة لأيّ بنية دلالية فإنّ البنية الكبرى تتركب من قضايا»[26] تتآلف فيما بينها لتُحدث معاني شمولية لا تتأتى من مجرد تتاليها، ولكن تستنبط من تفاعلها مع الوحدات النصية، وتَدخُل مقاصد المتكلمين وتأويلات

المتلقين. اقترح فان دايك بعض الإجراءات التي تساعد على تحصيل البنية الكبرى في النص، وتتلخص في عمليات الدمج والاختزال والحذف والتعميم، التي من شأنها أن تُبقي على البنية الكبرى والمحتوى الرئيس للنص. ثمّ إنّ فان دايك لا يتردد في ربط النص بقضاياه ذاهبا إلى أنّ المعنى الرئيس مرهون بتفاعل الوحدات الصغرى المُكونّة من أبنية القضايا وأبنية التتابع مع وحدات تختص بالنصوص.[27]

ولعل النص الرحلي من النصوص التي يصعب تحديد بؤرة أو تيمة واحدة لها كون الرحالة يطرق مواضيع عديدة، إذ إن المتصفح لكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر يلحظ شخصية موسوعية، من شأنها أن تفرز نصا مكثفا بالمشاهد والمعارف والعبر، وهذا ما أفصح عنه المسعودي بقوله: "أما بعد فإننا صنّفنا كتابنا في **أخبار الزمان** وقدمنا القول فيه في **هيئة الأرض ومدنها** وعجائبها وبحارها وأغوارها، وجبالها وأنهارها. ثم أتبعنا ذلك **بأخبار الملوك الغابرة** والأمم الدائرة.. ثم أتبعناه بكتابنا الأوسط في الأخبار على التاريخ ومن درج في السنين الماضية"[28].

فالعتبة القولية السابقة منطقيةٌ بالنظر لطبيعة الراوي في الرحلة، فهو ناقل لتراثه وتجاربه وتجارب غيره. والراوي في كل نص هو أداة بسيطة يظل جامدا ومحايدا أو حيويا وفاعلا، يسهم في خلق التخييل، وكلما كان حرا ومتحررا من التوجيه أبدع، ويتميز الراوي في الرحلة بكونه فاعلا ومشاركا ومنتجا للنص ومنظِّما للحكي، وممثِّلا مجربا وموضوع تجربة وبطلا لقصته.

فمن ذلك على سبيل المثال قول المسعودي: "وقد كان بين المسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم جماعةٌ من أهل التوحيد ممن يقِّر بالبعث، وقد اختلف الناس فيهم فمن الناس من رأى أنهم أنبياء، ومنهم من رأى غير ذلك...وممن كان في الفترة **خالد بن سِنان العبسي**، وهو خالد بن سنان بن غيث بن عبس، وقد ذكره النبي صلى الله عليه وسلم،[كما يقول المسعودي] فقال "ذلك نبي أضاعه قومه."[29] وذلك أن نارا ظهرت في العرب فافتتنوا بها، وكانت تنتقل وكادت العرب تتمجّس وتغلب عليها المجوسية، فأخذ خالد بن سنان هِراوةً وشد عليها وهو يقول: بَدًّا بَدًّا كلُّ هدى، مؤدٌّ إلى الله الأعلى لأدخلنها وهي تتلظى، ولأخرجن منها وثيابي تتندى، فأطفأها، فلما حضرت خالدَ بن سنان الوفاة قال لإخوته: إذا أنا دفنت فإنه ستجيء عانة من حمير يقدَمُها عَيْرٌ أبتر، فيضرب قبري بحافره؛ فإذا رأيتم ذلك فانبشوا

عني فإني سأخرج إليكم فأخبركم بجميع ماهو كائن، فلما مات ودفنوه رأوا ما قال ، فأرادوا أن يُخْرجوه فكره ذلك بعضهم. وقالوا: نخاف أن تتسبنا العرب إلى نبشنا عن ميت لنا[30].

إن وجود بعض التقارير والنقولات التأريخية في الرحلة جعلها تخرج نسقه الأصلي، وتأخذ أبعادا تاريخية؛ فهناك تقارب شديد بين **راوي الرحلة والراوي في المؤلفات التاريخية**؛ فكلاهما يزاوج بين الحكي والتأريخ، راوي الرحلة يعزّز الحكي بالتأريخ بينما يلجأ راوي التاريخ إلى تعضيد أخباره بالحكي[31].

وفضلا عن الملمح التاريخي السابق، والذي يعد فيه المسعودي أحد المصادر الرئيسة له نجد صاحب المروج في موضع آخر عالما بالتراجم؛ يقول المسعودي عن قسطنطين" مَلَك قسطنطين بعد أن هلك قليطانس بروما، وهو يعبد الأوثان، وكان أول ملك انتقل من ملوك الروم إلى بيزنطا، وهي مدينة القسطنطينية فبناها، وسماها باسمه إلى وقتنا هذا، وكان ملك قسطنطين إلى أن هلك إحدى وثلاثين سنة..."[32]. يبدو أن بنية الترجمة حاضرة بقوة في أدب الرحلة؛ حيث يتحول الرحّالة المؤلّف إلى ترجمان للأعلام والفقهاء والمتصوفة والأولياء؛ واللافت للانتباه أن هناك أنواعا من الرحلات تختص بإيراد صيغة تجمع بين السيرة الغيرية والترجمة، وهي النصوص التي يكون فيها الرحالة مرافقا لموكب رسمي لتدوين سَيْر الرحلة، فتبدو ذات المؤلف غائبة مقصية، حضورها من أجل خدمة الآخر على عكس النصوص الأخرى التي تتذوت فيها التراجم عن طريق أحكام ومواقف تجعل من العبارات المركبة جزءا من البنية الفكرية للرحالة،[33] كما هو الحال في حديث المسعودي عن قسطنطين والإسكندر وغيرهما.

وما قيل عن التاريخ يقال عن الجغرافيا، فالمسعودي يهتم كثيرا **بالجانب الجغرافي**، ذاكرا "ما تؤثره كلُّ بقعة من بقاع الأرض وهوائِها في حيوانها من الناطقين وغيرهم، وما تؤثر البقاعُ في النامي من النبات وفيما ليس بنام، كتأثير أرض الترك في وجوههم وصغر أعينهم، حتى أثّر ذلك في جِمالهم فقصرت قوائمها وغلظت رقابها، وابيضَّ وبرُها".[34] واهتمام الرحالة بسرد هذه القضايا نابع من كون الرحلةِ وسيلةً لبناء الجغرافية، ومجالا رحبا ومشبعا يشحذ الاجتهاد الجغرافي وينشطه ويسعفه برؤية كاشفة تقود إلى تحقيق التفاعل والتخصيب لاستقطاب مشاهد متقاطعة بين الجغرافي والتاريخي والاجتماعي والفيزيولوجي.

وبعد هذا كله يحفل أدب الرحلات **بسجلات اجتماعية** ترصد بعض أخبار السكان وطبائعهم وتقاليدهم وثقافتهم ومذاهبهم وغيرها مما يثير انتباه الرحالة في إطار المقارنة مع

ما يختزنه مما يسهل الاصطدام بمشاهد غير مألوفة. وتَحسم ثقافة الرحالة وخلفياته في عمق أو سطحية ملامسته للسجلات الاجتماعية للمناطق المرتحل إليها، كما أن وجود هذا العنصر داخل الرحلة شكّل بؤرة اهتم بها عديد الأنثروبولوجيين والإثنوغرافيين.[35]

ولا شك أن السفر جامعة تحفل بالدروس والعبر، وتحتشد بالعلم والمعرفة وتشحذ العقل والوجدان وتزيد في الفهم والإدراك، وتصقل الشخصية بفعل قساوة التجربة وحرارة المواقف ورهبة المغامرة وطلعة الجديد في كل شأن ومواجهة المفاجآت، وتحمّل مشاق الغربة والسفر، والاطلاع على الطبائع المختلفة والاعتياد على الغريب والتمرس بمعاملته، إن الرحلة " أكثر المدارس تثقيفا للإنسان."[36]

وبعبارة موجزة إن النص الرحلي بمساراته الأنواعية وتعدد خطاباته وفق نمطية السفر والحس الواقعي والتجربة والأوصاف الخاصة بالأمكنة والوقائع يجعل منه تعبيرا لصيقا بالإنسان، ومتجذرا في التاريخ وفي الثقافة الشفوية التي تنمو بين أحضان العامة والخاصة، ووسط تعبيرات سائدة ومهيمنة مثل الحكايات الشعبية والسير والتراجم وأدب المناقب والمسالك والتاريخ والجغرافيا الوصفية...فكل هذه التيمات –باعتبارها تجارب شخصية في إطار جمعي– تكتسب قدرة الشفوي وانصهاره، ثم التحويل وآلياته إلى المكتوب[37]. ومن مظاهر التحويل تلك اللمسة الفنية في تدوين الرحلة على نحو ما سنوضحه في رحلة الغرناطي.

ثانيا: شعرية السرد العجائبي في تحفة الألباب ونخبة الإعجاب لأبي حامد الغرناطي

تعد الرحلة من الأشكال التي تحفل بالثراء والتنوع باعتمادها على السرد؛ استكشافا لخبايا عوالمِ الحكي المشدود إلى تجاربَ وخيالاتٍ تنبني وترتسم سرديا، باعتبار السردِ هو الصيغةَ الطبيعية في النثر الفني، والحاملَ لكافة المكونات الأخرى، والمرآةَ التي تكنز رصيدا يتنامى من الصور والرؤى والتعليقات والقناعات والاحتمالات وصيغ الكتابة والتواصل والأساليب المتنوعة أو المحدودة للتعبير؛ لأن الرحلة تقف في ملتقى علامات فارقة في الأدب، في تماس بين نصوص سردية تعنى بعوالمَ فوق طبيعية وأخروية شديدة الصلة بيقين حالم ومفتقد، يتم تلمسُه في ضوء المرآة بين التجربة والحقيقة والمرجع والمتخيّل، وتجذير كل ذلك في الواقع والذاكرة والمكتوب، مما يجعل النص الرحلي حيّا وسط تصادي نصوص مختلفة، الشيء الذي يؤكد تحول الرحلة من فعل مادي وتجربة معيشة إلى تجربة ذهنية محوّلة واحتمالية، تورط الفعل المادي في حوض المتخيل.[38]

إن وظيفة تحويل الرحلة من طبيعتها الشفوية إلى تحققها الكتابي، يتم على عدة مستويات أبرزها: [39]

- تحولُ الرحلة من فعل مستمر إلى فعل منته؛ الراوي فيها يتحكم ظاهريا في النهاية داخل النص بعدما لم يكن يعرف بالتحديد مسارها على مستوى الواقع، وهو في النص يحكي بضمير المتكلم مسيرة ذاته وما لَقِيه المفرد أو الجمع، في الماضي القريب أو الماضي البعيد.
- تحوّل الرحالة من شخص واقعي إلى راو متخيَّل تخلّق داخل المسافة بين الفعل واللغة، فصار فاعلا لغويا، ووسيطا ينقل آثار التجربة، ويكون التحويل في هذا المستوى حرا مرنا كلما كانت المسافة ممتدة، ومحتفظا بوظيفة الإيهام.
- تحويل التجربة إلى أثر فني يتضمن كل عناصر المتعة والتشويق والمعرفة، إذ يتخلل السردَ بعضُ الشعر والأمثال والآيات القرآنية والاستشهادات المتنوعة، ثم التسلسل الخطي المدعوم بالاسترجاعات والاستطرادات، وغيرها مما يشكل الخانة الفارغة في النص الرحلي، من حيث كونُها تلوح وتخفى ، وتخفت وتقوى من نص لآخر.

إن الحديث عن جمالية أدب الرحلة قد تفتح لن أبوابا ونوافذَ لا سبيل للإحاطة بها، فهي –كما ورد في معجم Dictionnaire universel des littératures– إحدى الأشكال الكبرى الأم للأدب. وعليه سنكتفي بأخذ مقتطفات من رحلة الغرناطي تصوّر لنا بعضا مما أدركه الرحّالة العرب من عجائب المخلوقات، التي غذت خطاب المتخيل والعجائبي في هذا النوع من النصوص.

فالغرناطي عندما يتحدث عن مدينة النُحّاس، التي بنتها الجن لسليمان عليه السلام، والكائنة بفيافي الأندلس قريبا من بحر الظلمات نجده يربط القصة بشخصيات واقعية "عبد الملك بن مروان، موسى بن نصير" ويسرد خبرها بنمطية المألوف واليقيني على الرغم من كونه لم يشاهد مدينة النُحّاس كما تشي بذلك عبارات"حدث، قال ،" حيث يسوق مراهنة وقعت بين العساكر لمن يصعد إلى المدينة، يقول: " فانتدب رجل من الشجعان وأخذ ديته وأودعها، وقال إن سَلِمت فهي أجرتي، وإن هلكت فهي ديتي، فصعَد على فوق السلّم على سور المدينة، فلما أشرف ضحك وصفق بيديه، وألقى بنفسه إلى داخل المدينة،" وهنا يبدأ المتخيل يلقي بظلاله على الحقيقة، فتمتزج الوقائع بالخوارق، والمألوف بغيره، وبخاصة عندما:"سمعوا ضجة عظيمة وأصواتا هائلة، ففزعوا واشتد خوفهم وتمادت تلك الأصوات

ثلاثة أيام ولياليها، ثم سكتت تلك الأصوات، فصاحوا باسم ذلك الرجل من كل جانب فلم يجبهم أحد."[40]

إلى أن يتساءل موسى بن نصير:"هذه أرض بيضاء ، كثيرة الأشجار والنبات والماء فكيف يهلك الناس في هذه الأرض؟ فأمر موسى بن نصير جماعة من عبيده فدخلوا تلك الأرض فوثبت عليهم من بين تلك الأشجار نمل عظام كالسّباع الضارية فقطعوا أولئك الرجالَ وخيولَهم وأقبلوا نحو العسكر مثل السحابة كثرةً.

ثم يورد الغرناطي شعرا في وصف مدينة النحّاس:

والقَطْر سال بها فصاغ مدينة عجباً يَحَار الوهم دون صفاته

حصن النحّاس أحاط من جنباتها وعلى غلو السهم في غلواته

فيها ذخائرُه وجلُّ كنوزه والله يكلأها إلى ميقاتـه

في الأرض آيات فلا تك منكرا فعجائب الأشياء في آياته[41]

فالعجائبي في النص السابق وغيره صار مولّدا مرتبطا مع الذات والمرجع وطاقة للتكثيف والإنتاج والاستقطاب ونسج أثر خاص يصب وينطلق منهما العجيب، فالراوي في الرحلة يعضد نسيجه السردي ومعماريته بالرجوع إلى التواريخ لاستحضار الفاعلين في تلك الموصوفات والأحداث، التي وقعت، ويتسرب الحكي أثناء ممارسة لعبة الاستحضار إلى الحكي للإمتاع، وإبراز قدرة الراوي على اختزان ثقافة موسوعية، ويشمل بُعد الاستحضار الآخرَ المرجعي والديني والسياسي والثقافي والخرافي والرمزي(...) ومن داخله يتولد المُتَخيّل لأن كل مشروع واقعي يبدأ من الشخصيات. و"يندمج المتلقي وهو يقرأ رحلة تغذيها ذخيرة من اليقين الواقعي والاحتمالات وأيضا من الحركة والعجائب، في نسيج البناء ويصبح منتجا لصور ذهنية بوساطة التمثيل والتخييل، تتحول إلى تركيبات طوعية بموازاة الصور المنجزة في النص[42].

وختاما نقول هذا غيض من فيض، مثّل قراءة نقدية سريعة لنماذج من أدب الرحلة، أثبتت أن النص الرحلي حدبة مقعّرة أو جهاز عبر أدبي "إن جاز التعبير"، يظلّ بحاجة لعدّة منهجية ومعرفية منفتحة تلائم نسقَه المتفرد بتعدديته الأسلوبية والموضوعاتية.

الهوامش:

[1] المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، بيروت، ط:5، 1983، ص20.

[2] انظر فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، مدينة نصر، القاهرة، ط2: 2002، ص22.

[3] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1: 1997م

[4] دوبوكراند روبرت، النصّ والخطاب والإجراء، ص113.

[5] ينظر ديتر وفيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصّي، ص39.

[6] ينظر المرجع نفسه، ص44،45. .

[7] ينظر المرجع نفسه، ص50. .

[8] ينظر براون ويول، تحليل الخطاب، ص 285.

[9] Jean-Michel Adam, linguistique textuelle des genres de discours au textes, p125,126

[10] ابن منظور، لسان العرب، 275/2، مادة (خ ط ب).

[11] الزمخشري، أساس البلاغة، راجعه وقدم له إبراهيم قلاتي، دار الهدى، عين مليلة- الجزائر، ص172، مادة (خ ط ب)

[12] ابن منظور، لسان العرب، ص275.

[13] المصدر نفسه، ص ن، أساس البلاغة، ص 172.

[14] الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، (دط)، (دت)، 80/4.

[15] فخر الدين الرازي، التفسير الكبير- مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، (دط)، 1403هـ-1983م، 187/26-188.

[16]شرح المفصّل، عالم الكتب، بيروت – لبنان، 84،85/3.

[17]المرجع نفسه، ص134،135.

[18]ينظر عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب- مقاربة لغوية تداولية، ص36.

[19]الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط2، 1406هـ-1986م، 136/1.

[20]ينظر انفتاح النص الروائي- النص والسياق، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، الدار البيضاء- المغرب، (دط) (دت)، ص32.

[21]التشابه والاختلاف- نحو منهاجية شمولية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، بيروت-لبنان، ط1، 1996، ص35.

[22]ينظر رابح بوحوش، الأسلوبيات وتحليل الخطاب، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، (دط)، (دت)، ص73.

[*] بالإضافة إلى بنفنيست وكيسبن يرى شارودو (Charaudeau) الخطاب ملفوظا مضافا إليه ظروف تواصله. ينظر المرجع نفسه، ص ن.

[23]Problème de linguistique générale, édition Gallimard, 1974-1995, Cérès édition Tunis , P240- 241.

[24]ينظر رومية، وهب أحمد، شعرنا القديم والنقد الجديد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،) . الكويت، العدد 207 ، مارس 1997 ، ص 262 .

[25]ينظر شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي – التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، القاهرة، ط:1، 2006، ص11 .

[26] محمد العمري، نظرية الأدب في القرن العشرين، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء– المغرب، (دط)، 1997، ص58، 59.

[27] ينظر النص والسياق – استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ص198 وما بعدها.ديتر وفهيفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ص48.

[28]فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ص216.

[29] الحديث روي بكيفيات مختلفة. رواه الطبراني موقوفا، ضعّفه أبو حاتم وأحمد وابن معين. وهو معارض للحديث الصحيح، فقد روي عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه ذكر عيسى، فقال: " ليس بيني وبينه نبي". وظاهر هذا يمنع وجود نبي بينهما والله أعلم. انظر :الحاكم، المستدرك على الصحيحين، الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد.

[30]المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص78، 91، 92.

[31]شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص308، 309.

[32]المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص350، 351.

[33]ينظر شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص 68، 69.

[34]المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص172.

[35]انظر شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص73، 75.

[36]ينظر فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ص21.

[37]انظر شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص498.

[38]انظر المرجع نفسه، ص280، 281.

[39]انظر المرجع نفسه، ص315.

[40]الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، ص53.

[41]المصدر نفسه، ص54، 162.

[42]ينظر المصدر نفسه ص376.